تجربة التعليم الأصلي في الجزائر
مشروع نهضوي في سياق تجاذبات فكرية

أ. إسماعيل تاحي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مقدمة:

ورثت الجزائر المستقلة منظومة تعليمية هجينة بين التعليم الفرنسي و التعليم العربي الحر والتعليم الطرقي فهذه الأنواع المذكورة كانت تسير في آن واحد[1] . فالمدرسة الفرنسية كانت تلقن مرتديها تعليمًا فرنسيًا لا يختلف عن التعليم المطبق في الوطن الأم - فرنسا- من حيث التشريعات والمناهج و اللغة و المحتوى و لم يكن هذا التعليم بمكوناته المذكورة يتوافق مع مقومات الأمة الجزائرية من جهة و تطلعات الشعب الجزائري الذي ضحى بخيرة شبابه من أجل استرجاع كرامته و ثقافته العربية الإسلامية و يعيد الوجه الحقيقي العربي الإسلامي للبلاد و يحدث في نفس الوقت وعيًا دينيًا واجتماعيا يتوافق و مقومات الأمة.[2]

أما النوع الثاني من التعليم فهو التعليم العربي الحر الموروث من عهد الحركة الوطنية ، فالمعروف لدينا أن جمعية العلماء كانت لها مدارس و معاهد منتشرة في المدن و الأرياف و ظلت أقسام هذه مفتوحة إلى ما بعد الإستقلال.

إلى جانب مدارس جمعية العلماء كان للحزب الوطني الاستقلالي - حزب الشعب - حركة منتشرة في الأوساط الشعبية تقدم دروسًا للناشئة عماد المستقبل إلى جانب هذين النوعين من المدارس فقد كان للتعليم الحر حظ من المدارس إنها مدارس الزوايا و الطرق و هذا النوع من التعليم

كان منتشرًا في المقام الأول في الأرياف و بعض المدن و بدرجة واسعة نسبيًا في مناطق الجنوب البعيدة عن سلطة الإدارة الفرنسية[3] .و بالرغم من وجود هذه المؤسسات التعليمية فإن المنظومة التربوية في الجزائر بعد الإستقلال لم تكن لتترجم أمال و رغبات الشعب الجزائري[4]. وبعد هذا الاستعراض التاريخي المختصر خليق بنا ان نصيغ اشكاليتنا كالتالي: ما حقيقة مشروع التعليم الأصلي؟ ماهي ظروف ميلاد هذا النوع من التعليم وما هي مرتكزاته الفكرية والحضارية؟ ما مكانة وحجم مشروع التعليم الاصلي في خضم مشاريع وأطروحات فكرية معارضة؟ الى اي مدى نجح هذا النوع من التعليم في تحقيق الاهداف المنشودة؟

أمام التحديات التي ذكرت سالفا كان على الدولة الوطنية أن تولي الجانب التعليمي الاهتمام و الرعاية و من هنا جاء التفكير في تأسيس تعليم يتوافق مع المتطلبات الفكرية و الحضارية للشعب الجزائري الذي ظل محرومًا من هذا التعليم طيلة الفترة الاستعمارية و ارتبط وجود التعليم الديني باسم أحد أعلام الجزائر و منظريها إبان الاستعمار الفرنسي إنه عميد المؤرخين الجزائريين الأستاذ أحمد توفيق المدني** القيادي في جمعية العلماء الجزائريين و المشرف على أول وزارة للأوقاف في الجزائر المستقلة بين سنتي 1962- 1964.

و إذا كان في الظاهر أن إنشاء مثل هذا النوع من التعليم الديني في الجزائر هو استجابة لتطلعات الشعب الجزائري لإعادة إدماجه في الثقافة و الحضارة العربية الإسلامية فهو يعني تحقيق مشروع ظل حلم الجزائريين أيام الحركة الوطنية و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و لهذا فلا غرابة أن يقترن وجود التعليم الديني باسم توفيق المدني أحمد الذي كان يرى ضرورة إعادة الاعتبار للغة و الثقافة الإسلامية بكل مكوناتها العقدية و الحضارية و اللغوية و هذا ما يمثل تطبيق الشعار العزيز على نخبة من العلماء و الذي رافقهم طيلة نضالهم للمحافظة على مقومات الأمة و المجتمع و المتمثل في (الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا) [5].

و الحق أن التعلم الديني في الجزائر بدأ بداية متواضعة بل بطيئة و قد يعود هذا إلى المرحلة التاريخية الصعبة من الناحية الاقتصادية و التأطيرية فبناء مؤسسات جديدة و استقدام مؤطرين من الدول العربية يتطلب ميزانية مالية معتبرة و هذا ما لم يكن سهل المنال في هذه الفترة بالذات (1963) [6] .

و حسب رواية بعض المعاصرين ان هذا المشروع ما كان ليظهر إلى الوجود لولا تلك الإسهامات الهامة و المعتبرة من البر و الإحسان الذين كانت لمساهماتهم المالية و تشجيعهم المعنوي الأثر الواضح في نجاح هذه التجربة الجديدة في الجزائر عشية الإستقلال فكانت الانطلاقة سنة 1964 بأربع مؤسسات منتشرة على الولايات : العاصمة ، بني دوالا (تيزي وزو) قسنطينة ، باتنة[7].

انطلق التعليم الديني بصدور تعليمة رئاسية و تحت مسمى"التعليم الديني" فكانت البداية التربوية بطيئة و متواضعة حسب شهادات المعاصرين[8] غير أننا نلاحظ أن القائمين على هذا التعليم كانت تحدوهم إرادة قوية و صلبة في ووضع أسس راسخة لهذا النوع من التعليم في الجزائر و يظهر هذا جليًا فيما أن مرت سنة واحدة عن ميلاد التعليم الديني حتى صدر مرسوم في 11جانفي1964 ينظم ويوضح مغزى هذا التعليم فقد جاء في المادة الأولى له"[9] أن التعليم يقسم إلى نوع ثاني هو التعليم الديني الإسلامي الذي هو من اختصاص وزارة الأوقاف و يتضمن التعليم القرآني و التعليم الإكمالي و الثانوي و التعليم العالي الإسلامي" و قد كانت أهدافها تتمثل في تكوين جيل متضلع في الثقافة العربية الإسلامية إضافة إلى العلوم العصرية[10] عن طريق :

1- تقوية مكانة اللغة العربية و نشرها على أوسع نطاق.

2- إنقاذ الشباب الذين تجاوزوا السن المحددة للدخول إلى التعليم العام بإدماجهم في التعليم الديني.

3- تكوين إطارات دينية قادرة على تحمل مسؤولياتها و تبليغ رسالتها.

4- تحقيق التكوين العلمي بأوسع معانيه من التربية الإسلامية الحديثة.

5- المساهمة في تربية الفرد روحيًا و خلقيًا و عقليًا و جعله عضوًا نافعًا في مجتمعه [11].

و انطلق التعليم الديني لتحقيق الأهداف المذكورة آنفا فراح يستقبل الشباب الذين تجاوز سنهم 14 سنة و الذين يلمون ببعض قواعد اللغة العربية و القرآن الكريم حيث يستفيدون من تكوين لمدة أربع سنوات معظمه دروس في اللغة العربية يتحصل الطلبة بعد هذا التكوين على شهادة الأهلية [12] ويبدوا أن نجاح التجربة الأولى التي انطلقت بأربع معاهد شجعت و لا شك الجهة

الوصية على فتح معاهد جديدة و ما يؤكد النتائج الطيّبة التي تحققت مع بداية هذه المؤسسات هي الزيادة المطردة لعدد المعاهد كما هو موضح في الجدول التالي [13] :

الموسم الدراسي	65-64	66 -65	67-66	68 -67	69 -68	70 -69
عدد المعاهد	04	07	12	12	14	15

- يظهر من الجدول زيادة بارزة حيث كانت البداية بأربع معاهد و وصلت سنة 1970 إلى 15 معهدًا و هو ما يترجم نجاح و تقدم هذه المؤسسة في العمل التربوي.

- ومن جهة أخرى كانت الزيادة في عدد الطلبة المسجلين في هذه المعاهد كما هو مبين في الجدول[14]:

السنوات	1963	1964	1965	1966	1967	1968	1969
عدد تلاميذ مؤسسات التعليم الديني	908	2196	2292	4735	5725	6939	7529

- يظهر الجدول ارتفاع عدد الطلبة حيث في سنة 1963 لم يتعد عدد الطلاب 908 طالبا وصلوا في سنة 1969 إلى 7529 طالبا.

- و قد حصل الطلبة على نتائج معتبرة من خلال ارتفاع عدد الناجحين في شهادة الأهلية مثلما يوضحه الجدول التالي[15] :

الموسم الدراسي	65-64	66-65	67-66	68-67	69-68	70-69
عدد الناجحين	92	257	390	628	788	813

يلاحظ من خلال الجدول إيجابية المردود التعليمي لهذه المؤسسات إذ كانت أول دفعة للناجحين و الناجحات في شهادة الأهلية بـ:92 طالبا خلال الموسم الدراسي 1964 – 1965 ارتفع العدد إلى 813 طالبا في الموسم الدراسي 1969 – 1970 .

و بالرجوع إلى شهادات بعض إطارات التعليم الأصلي الذين ما زالوا على قيد الحياة يجمعون على أن القيمين على التعليم الديني في الجزائر رغم إيمانهم و حماسهم لهذه التعليم على أن هذه

المؤسسة تعرضت لصعوبات جمة إن على مستوى الهياكل أو البرامج أو موقف الآباء و الأولياء تجاه هذا النوع من التعليم ناهيك عن الخصوم الحقيقيين للتعليم العربي عامة و التعليم الديني على وجه الخصوص ، فالتعليم الديني في بدايته و نظرا للصعوبات المالية التي كانت تعيشها الجزائر إبان الفترة اضطرت الجهة الوصية إلى فتح أقسام في المباني القديمة الموروثة من العهد الاستعماري[16].

و الحق أن هذه الأقسام كانت تفتقد إلى حد كبير الشروط الأساسية من الهياكل و الوسائل المادية يضاف إليها تباطؤ في إنجاز المشاريع التي تسمح بتكوين إطارات دينية كفأة و واعية بمسؤوليتها و تطبيق برامج رديئة لا تتجاوب مع الأهداف السابقة التي سطرت لها، ولعل هذا ما جعل الطلاب والتلاميذ ينفرون منها و يعتبرنها غير مواكبة لروح العصر و علومه هذا على المستوى البيداغوجي يضاف إليها أن الآباء كثيرا ما ترددوا في إرسال أبنائهم إلى هذه المعاهد [17] بل ذهب بعضهم إلى النفور منها حيث أعتبر التعليم بها لا يتواكب مع روح العصر[18] لذلك ظل التعليم الديني في الجزائر يسير بتوئدة إلى غاية 1970 حيث شهد هذا التاريخ انقلابا حقيقيا في هذا النوع من التعليم فأدخلت عليه إصلاحات جذرية لا من حيث البرامج و الهياكل بل من حيث التسمية أيضا فغدا يعرف بالتعليم الأصلي ، و من هذا التاريخ يدخل التعليم الديني في الجزائر مرحلة أخرى تميزت بوضوح الرؤية و إيجاد تعليم يتوفر فيه شرطان أساسيان الأصالة و التفتح فقد روعي فيه أن يكون هذا التعليم يتماشى و المرحلة المعاصرة له من حيث الأهداف و البرامج [19].هذه الأخيرة ، التي استمدت من برامج المدارس الدينية في المشرق العربي و هكذا غدا التعليم الأصلي يجمع بين العلوم الدينية و الوضعية ، فكانت البرامج تتناول العلوم الحديثة مثل الرياضيات ، الفيزياء ، الجغرافيا ، التاريخ و المواد الأدبية و الشرعية تناولت التفسير و الفلسفة و تاريخ الأديان المقارن[20] .

إن النظرة المتفحصة لبرنامج التعليم الأصلي الجديد يتبين للباحث أن روحا جديدة نفخت في هذا التعليم و أصبح بإمكان المقبلين عليه التفتح على المستقبل و الخوض في الاختصاصات العلمية المختلفة على أساسين رئيسين :

الشخصية الوطنية الجزائرية و الحضارة العربية الإسلامية★

و نعتقد أن إدخال مثل هذه الإصلاحات الجذرية على برنامج التعليم الديني في الجزائر أصبح يعرف إقبالا أكثر من ذي قبل من طرف أبناء الشعب الجزائر كما هو موضح في الجدول التالي :[22]

السنوات	1970	1971	1972	1973	1975
تلاميذ مؤسسات التعليم الأصلي	8682	12655	15345	23807	30000

يظهر الجدول تضاعفا مطردا في عدد التلاميذ فتضاعف العدد من سنة 1970 إلى 1975 إلى حوالي 4 مرات ليصل إلى 30 ألف تلميذا نظاميا و هذا يؤكد ما ذهبنا إليه و هو ما شجع و دفع الوزارة الوصية على فتح دور جديد للتعليم الأصلي في مختلف ولايات القطر★* امتدت من العاصمة إلى تمنراست و من عنابة إلى تلمسان كما هو مبين في الخريطة :

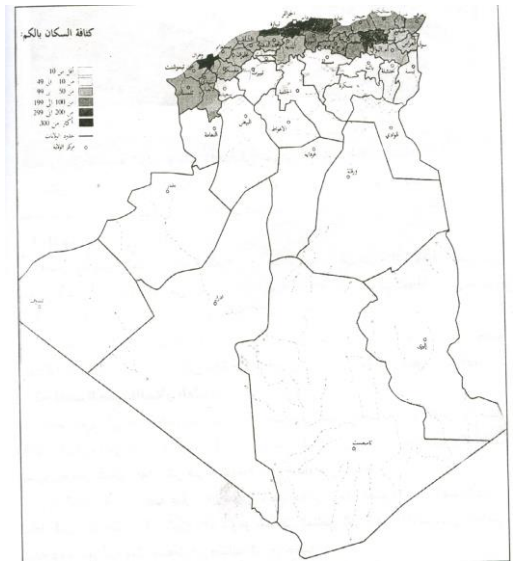

ففي سنة 1971 ★★ بلغت مؤسسات التعليم الأصلي عشرين مؤسسة ★★★ و ظلت في تزايد ليصل إلى 52 مؤسسة سنة حتى 1976 كما هو موضح في الجدول التالي:[23].

السنوات	1971	1972	1973	1976
عدد المؤسسات	21	27	31	52

و قد ظل الرئيس هواري بومدين ★ يؤكد في خطبه و أثناء زياراته الميدانية لهذه المؤسسات على أنها :[24] " ليست من الدرجة الثانية ... و محتوياتها لا توصف بالتخلف و الرجعية " هذا من جهة و من جهة أخرى فقد وجدت الجماهير العريضة ــ التي ظلت محرومة من التعليم ضالتها في استدراك ما فاتها من الاستفادة من العلم و الاستزادة من المعرفة و الثقافة و هذه الرسالة اعتبرت من جميع المعاصرين محمدة للتعليم الأصلي حيث ساهم في إيجاد كم معتبر من المقاعد الدراسية لأبناء الأسر المتواضعة[25].

كما عمل هذا التعليم أيضا في الحد من اتساع دائرة الجهل و الأمية التي لازمت المجتمع الجزائري طيلة الوجود الكولونيالي[26] و ذلك عندما شرعت الوزارة الوصية في حملة محو الأمية في كل مساجد القطر ابتداء من يوم 15 اكتو بر 1970[27] و قد افتتح هذه الحملة الرئيس هواري بومدين و تفقد سيرها في عدة ولايات و وجدت الحملة صداها في أوساط الشعب الجزائري المتعطش للعلم والمعرفة[28]. و الجدول التالي يبين مراكز محو الأمية و عدد المسجلين في السنة الثانية لانطلاق الحملة أي في 1972.

جدول يبين مراكز محو الامية وعدد المسجلين والناجحين في شهادتي الابتدائية و الأهلية سنة 1972.[29]

الولايات	عدد مراكز محو الامية	عدد المسجلين	الناجحون في شهادة الابتدائية والنهائية
الجزائر	123	4915	
المدية	88	1500	
الشلف	50	507	
مستغانم	52	1576	
وهران	112	2330	
تلمسان	40	2200	
تيارت	35	900	06
سعيدة	47	1666	
بشار	53	1240	
تيزي وزو	320	2500	
سطيف	231	4656	
قسنطينة	160	3200	25
عنابة	106	1400	
الأوراس	54	2299	30
ورقلة	144	2511	112
المجموع	**1615**	**35000**	**173**

و من خلال عدد المسجلين و الناجحين في الشهادة الابتدائية و الأهلية نلمس الثمار الطيبة لهذه العملية التي جعلت من هذه الفئة من يطالع الصحف اليومية و البعض الآخر يتقدم لامتحان الممرنين أو إلى امتحان شهادة الأهلية [30].و تعززت هذه العملية بتنظيم دورات تدريبية في المراكز التربوية التابعة للمركز الوطني لمكافحة الأمية و ذلك بالتنسيق مع منظمة اليونسكو [31].

إن النجاحات الكبرى للتعليم الديني في الجزائر و تقدم الإصلاحات في هذا القطاع حمل القائمين على التعليم الأصلي إلى توسيع دائرة اهتماماتهم فشجعوا الطلبة الأجانب للانخراط في هذا السلك من التعليم فشهدت فاتحة 1972 وصول أول دفعة من الطلبة الأفارقة ★ يتقدمهم طلبة السنغال ثم فولتا العليا ، غينيا ، ساحل العاج، الكونغو ، موريتانيا ، السودان ، غامبيا ، النيجر ، الصومال و تشاد كما وصلت دفعات الطلبة من البلاد الإسلامية البعيدة ـــ تايلاندا ـــ تحدوهم رغبة ملحة في الاستزادة من العلوم الشرعية و الثقافة العربية فقد وجدوا في مدارس التعليم الأصلي ضالتهم فالكثير منهم رجع إلى بلاده حاملا شهادة تؤهله لشغل منصب محترم[32].

و إذا كنا نصدق أن دافع الجزائر في هذه الفترة هو المجيء بمساعدة أبناء هذه البلدان الإفريقية أساسا و العالم الثالث عموما و شغل مكانة قيادية بين هذه الأمم المستقلة حديثا .

كما حرصت الوزارة الوصية ـــ وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ـــ على تبليغ رسالتها إلى الجالية الجزائرية و الإسلامية في أوربا بإرسال وفود من الطلبة مزدوجي اللغة " Bilingues " للاتصال بالمهاجرين الجزائريين و المسلمين خصوصا الطلبة و العمال و إن كانت هذه المبادرة ليست جديدة فقبل الاستقلال أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها هذه المهمة و ذلك من خلال نشاطات العربي التبسي و الشيخ الفضيل الورتلاني و آخرون في المهجر[33].

إلى جانب التعليم النظامي اهتمت وزارة التعليم الأصلي بشرائح أخرى ظلت بعيدة عن التكوين والتعليم إنها الفئة المسنة أي من فاتهم سن التمدرس فاستحدثت الجامعة الشعبية ★ التي فتحت على مستوى المؤسسات المذكورة سالفا لجميع المستويات الدراسية دون الالتزام بالشروط الضرورية للطلبة النظاميين [34].

و يبدوا من أول وهلة أن التفكير القائمين على هذا المشروع هو محاولة لمحو الأمية و الجهل من جهة و إزالة رواسب الاحتلال التي كانت قائمة على أبعاد هذه الفئة من نور العلم و المعرفة [35].

و الحق أن جهد الجامعة الشعبية قد وجد قبولا و استحسانا من قبل الجزائريين قاطبة فكان الإقبال على هذا الدور معتبرا★ و الأرقام التي بين أيدينا تترجم هذه الروح ففي الموسم الدراسي 1972 – 1973 كان عدد المترددين على هذا الدور 5400 طالبا ، ارتفع هذا العدد عشية إلغاء التعليم الأصلي في 1976 إلى 10 آلاف طالبا و طالبة [36]و هذه ظاهرة ملفته الانتباه و تترجم بحق تلهف الجزائريين للعلم و التكوين و المعرفة و في الوقت نفسه إجابة صريحة على النظرية الاستعمارية العنصرية التي ظلت تتهم الجزائري بأنه عدو للمدرسة هذا من جهة و من جهة أخرى تترجم هذه الأرقام الروح المكافئة للقائمين على التعليم في هذه الفترة بالذات .

كل هذه الإنجازات دفعت الوزارة إلى التفكير في توسيع دائرة التعليم الأصلي ليتوج فالتعليم العالي عن طريق استحداث كلية الشريعة و كلية أصول الدين و كلية العربية و الآداب السامية المقارنة و ذلك في كل من قسنطينة و العاصمة و وهران و هي تجربة تشكل نواة أولى لإنشاء جامعة إسلامية كاملة تجمع كل التخصصات : التعليم الحديث مثل الطب و الصيدلة و الهندسة و الاقتصاد إضافة إلى المواد الدينية [37] .

و تشجيعا من دعاة المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية ظهرت إلى الوجود جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة و بعدها ظهرت جامعة مماثلة للأولى أطلق عليها جامعة أول نوفمبر بباتنة تخليدا وتكريما للثورة التحريرية بينما ظلت مشاريع العاصمة و وهران تراوح مكانها .

بجانب الرسالة التعليمية و التربوية (التعليم الأصلي ، الجامعة الشعبية ، محو الأمية) اهتمت وزارة التعليم الأصلي و بتوجيه من مولود قاسم بتكوين و تحسين مستوى الأئمة و ما يندرج تحت خانة الإمامة التي تعتبر المهمة الأصلية التي وجد من أجلها هذا النوع من التعليم ــ أي التعليم الأصلي فنجدها تخصص مداس لتكوين الأئمة ★ و القائمين على الجانب الديني من إفتاء و مرافقين للحج ★★ و مرشدين و غير ذلك و كانت دعوات مولود قاسم تصب في ضرورة تحسين هذا الفصيل من المرشدين و في كل مناسبة يوصي هذه الفئة – الأئمة ــ بأن يتسلحوا بالعلم و أن

يتخلوا على الأفكار القديمة التي أصبحت لا تقنع الناس خاصة الشباب فطريقة الوعظ و الإرشاد حسب قوله ينبغي أن يتغير جذريا لأن الدعوة الخصبة المثمرة هي التي ترتكز على الشباب و ذلك باستخدام طرق تربوية حديثة فالخطب التي كانت تقدم في المساجد رأى أنها أصبحت لا تتماشى و المرحلة التاريخية للبلاد إبان هذه الفترة و نصح بالابتعاد عن الأساليب العقيمة و التعصب و كل ما ينفر الشباب على الإقبال و التمسك بدينهم و حضارتهم العربية و الإسلامية.

و في المقابل استفاد هذا الفصيل من السلك الديني ابتداء من 1971 من فرصة الإدماج في الوظيف العمومي و ترتيبهم حسب درجاتهم العلمية على غرار العاملين في قطاع التربية و التعليم وأصبح القائمون على هذا النشاط يتمتعون بحقوق ★★★ الموظفين في الدولة .[38]

إلى جانب الاهتمام برجال السلك الديني كانت لوزارة التعليم الأصلي مبادرات لا تقل أهمية عن سابقاتها و هي إعادة إحياء و تنظيم الزوايا التقليدية المنتشرة في مختلف جهات الوطن التي كان لها الفضل الكبير و الواسع في محافظة الجزائريين على ثقافتهم و دينهم و من هنا جاء الاهتمام و الرعاية بهذه الدور التي و حسب مترجمنا لن تبقى ذلك المعهد الذي يقتصر نشاطه على تحفيظ القرآن والعلوم اللغوية و الدينية بالطرق التقليدية بل سوف تنظم و تكيف ماديا و تربويا لتؤدي دورها في عملية التوعية و التعليم وفق البرامج المتبعة في مدارس و ثانويات التعليم الأصلي [39] و بنفس الحرص جاء اهتمام مولود قاسم فرسالة بالمسجد لا تنحصر في أداء الصلاة فقط بل أيضا كمدرسة و مجلس علم و ملتقى لإدارة المناقشات و إلقاء الخطب و المحاضرات [40].

و في خضم نجاح التجربة و النتائج الطيبة لمنظومة التعليم الأصلي بدأت تظهر بعض الصعوبات منها ما تعلق بنوعية التعليم كلغة التدريس و المواد المقررة و الصعوبة الثانية احتواء هذا التعليم على هامش من الايدولوجيا الوافدة على الوسط الجزائري و نقصد بالتحديد المؤطرين و الأساتذة والمكونين القادمين من البلاد العربية المشرقية ساهموا في نشر إيديولوجيات مختلفة حملوها معهم من بلدانهم الأصلية كالبعثية و الناصرية و الأصولية الإسلامية و هو ما أثر على توجهات المتمدرسين وظهر ذلك جليا في الاصطدامات الطلابية التي كانت تحدث من حين لآخر بين الطلبة في الجامعات والأحياء الجامعية كان أخطرها التي وقعت في كلية الحقوق بن عكنون في ماي 1975 بين الطلبة.

و قد أثيرت هذه القضية أكثر ما أثيرت من طرف خصوم التعليم الأصلي و إذا كانت لهم هامش من الحقيقة من الاتهامات، فإن القصد هو محاولة عرقلة هذا النوع من التعليم الجديد في الجزائر خاصة بعد أن ظهرت نتائجه الطيبة تطفو على السطح بل يمكننا القول أصبح منافسا حقيقيا للتعلم العام الذي كان يغلب عليه اللغة و البرامج الفرنسية و هكذا وجد القائمون على هذا التعليم أنفسهم أمام معضلة حقيقية لما أثيرت قضية توحيد التعليم في الجزائر ، و هذا الأخيرة يمكن تشبيهها أو يمكن أن يصدق عليها القول كلمة حق أريد بها باطل ، فخصوم التعليم الأصلي★ يرون فيه خطرا على التوجه الاشتراكي كونه تيار رجعي يستمد قوته من دعم الأخوان المسلمين و يتذرع هؤلاء في أن توحيد التعليم يشكل القاسم المشترك بين الجزائريين و بذلك يتحقق مبدأ ديمقراطية التعليم و ما يتبع ذلك من إتاحة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع و التي لا يمكن تصورها خارج نطاق موحد للتربية [41]، كما أن الهدف الأساسي للتعريب و الجزأرة هو بالضبط توحيد الشباب.و ربطهم بما ينتمون إليه من المنابع الأصلية المشتركة و الفكرية منها و الاجتماعية و الايديولوجية و بالتالي تشبعهم بنفس المرجعيات ، إضافة إلى أن توحيد التعليم ضرورة ملحة هدفها إزالة الازدواجية على مستوى البنيات و البرامج التربوية [42].

إلا أن القصد كان إلغاء التعليم الأصلي لقناعات فكرية و ايديولوجية مرتبطة بثقافة القائمين على التعليم العام (الثقافة الغربية) و هكذا وجد القائمون على هذه المنظومة أنفسهم أمام خيار واحد هو التنازل على هذا النوع من التعليم و القبول بدمجه في التعليم العام[43] ، خاصة بعد أن أصبحت السلطة في البلاد ترى نفس رأي دعاة توحيد التعليم و كان تبريرها في ذلك هو ما جاء في الميثاق الوطني[44] "... و انطلاقا من المبدأ الثابت لوحدة التعلم و توحيد التوجه الايديولوجي للشباب و حتى يكفل لجميع الجزائريين في أقرب الآجال نفس التعليم فمن الضروري أن يدمج التعليم الأصلي والتعليم العام في تعليم واحد ، و أن يندمج النظامان التعليميان في تعليم واحد بنفس الروح و نفس المواد " .

و صفوة القول أن مؤسسة التعليم الأصلي التي انطلقت من دور مسترجعة(ثكنات ، مستشفيات قديمة) و بعدد ضئيل من الرجال و المؤطرين و بإرادة قوية و إيمان واسع استطاعت

هذه الدور أن تشق طريقها في نشر العلم و الرسالة الحضارية حتى أصبحت محل إعجاب و تقدير ممن عرفوها من الجزائريين و العرب و المسلمين الذين زاروا الجزائر وقتها [45].

إن نجاح التعليم الأصلي في فترة محدودة 70 – 76 يعود في رأينا إلى تعطش الجزائريين إلى الثقافة العربية الإسلامية و إيمان الدولة الوطنية و القائمين على هذا التعليم بالرسالة الحضارية للتعليم العربي الإسلامي من جهة و من جهة أخرى فضل مولود قاسم كقيادي للتعليم الأصلي من موقع إشرافه المباشر فقد أراد أن يؤسس لتعليم ديني يرشد الأمة الجزائرية في جانبها الروحي و يملأ الفراغ الذي أوجدته السياسة التعليمية لما قبل الاستقلال [46].

و بالعودة إلى اجتهادات المعاصرين له من أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي أفادنا بشهادة فحواها [47]"لو نجح مولود قاسم في التعليم الأصلي و وجد المساندة و سارت الأمور بعقلنة و توازن مدروس لتفادينا تشرذم شبابنا الذين ذهبوا يبحثون عن غذائهم المفقود في بلادهم في السعودية وإيران و أفغانستان بل في كتب يصدرها مفتون في الشرق و الغرب ... لكن ماذا يفيد ذلك و قد رأى أماله تتحطم ★ و عاش حتى رأى بلاده تمزق ثم تركها تبحث عن منظومة تربوية أخرى "

و إذا ما تفحصنا شهادة أبو القاسم سعد الله ندرك تمام الإدراك الدور الهام و الطلائعي الذي لعبه مولود قاسم في منظومة التعليم الأصلي الهادفة إلى إيجاد حلول دائمة للمعضلة التعليمية من جهة و القضية الدينية في الجزائر من جهة أخرى .

و لا ننهي الكلام دون الإشارة إلى رواية أخرى أدلى بها العلامة الشيخ أحمد حماني ★★ التي ورد فيها ما يلي:[48] " ... قضي على التعليم الأصلي و ادمج في التعليم العام و كان بدء الفشل في هذه الخطوة إذ أفلت الزمام من التحكم في الاتجاه الديني الصحيح إلى حالة إهمال و تفكك و تسرب من حالة التعليم إلى المساجد و أدركنا زمن بلغ العبث فيه إلى المنبر و المحراب و أفلت الأمر أو كاد يفلت من الوزارة المختصة "

خاتمة:

صفوة القول أن مؤسسة التعليم الأصلي التي بدأت بدور متواضعة و رجالات معدودين غدت بحق تنافس بل و تضاهي المؤسسات القديمة و العريقة من حيث العدد و من حيث المنخرطين كما وكيفا هذا بالنسبة الجزائريين أما بالنسبة للأجانب فكانت هذه المدارس بمثابة الجامعات الكبرى حيث تذكر شهادات الإخوة الأفارقة و الآسيويين الذين درسوا في هذه المؤسسات أنهم كانوا ينظرون إليها نظرة الطالب الذي يلتحق بجامعة الأزهر أو الزيتونة أو القرويين و هذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن مؤسسة التعليم الأصلي كانت بمثابة منارة لجيل الاستقلال فتمسكت بمقومات هذه الأمة من لغة ودين و تاريخ و دافعت عن الوطن و حرمته أمام الغزو الثقافي الذي ظل متربصا بالجزائر المستقلة [49]

الهوامش:

[1] عائشة بوالثريد: التعليم العربي الحر في الجزائر ومؤسساته من 1947–1962، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ المعاصر، تحت إشراف الأستاذ عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة، 2004-2005، ص212.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسكاوي، ط2، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1961، ص39.

[3] محمد علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ج3 مطبعة التعاون – دمشق 1965 – ص ص 49-50

[*] مؤرخ و أديب سياسي جزائري ولد سنة 1899 بتونس من أبوين جزائريين لاجئين إلى تونس درس بجامعة الزيتونة ، شارك في الحياة السياسية التونسية و ساهم مع عبد العزيز الثعالبي في تأسيس الحزب الدستوري الحر ، نفاه الفرنسيون سنة 1925 إلى الجزائر ، انظم للحركة الإصلاحية الجزائرية و كان من المؤرخين الجزائريين الأوائل ، تولى مناصب عديدة منها أمينا عامًا لجمعية العلماء المسلمين سنة 1952 ووزيرًا للثقافة في الحكومة المؤقتة الأولى ، و كان على رأس أول وزارة للشؤون الدينية و الأوقاف بعد الإستقلال توفي سنة 1983:ينظر معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين،مرجع سابق ص 303

[5] عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء الجزائريين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931- 1945) مرجع سابق ص 207

[6] مقابلة مع محمد الصغير بلعلام – المجلس الإسلامي الأعلى بالعاصمة في 12 جانفي 2005

[7] حديث مع الدكتور عبد الكريم بوصفصاف يوم 18 أكتوبر 2006

[8] محمد الصغير بلعلام – المقابلة نفسها

[9] الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية مرسوم 64 – 10 المؤرخ في 11 جانفي 1964

[10] أحمد درّار : التعليم الأصلي في الجزائر خلال العشر سنوات من استرجاع الإستقلال – مجلة الأصالة – عدد 08 السنة الثانية ، ماي – جوان 1972 ص 234

[11] عبد المجيد الشريف : التعليم الأصلي في الجزائر – مجلة الأصالة – عدد 4 السنة الأولى أكتوبر 1971 ص ص 69 – 70

[12] أحمد درار – المرجع نفسه ص 231

[13] عبد المجيد الشريف – المرجع نفسه ص 71.

[14] إدارة التعليم الأصلي: مجلة الاصالة عدد، 16-17 (عدد خاص بالتعريب) السنة الرابعة، نوفمبر ، ديسمبر 1973 ، ص 431.

[15] أحمد درّار : المرجع نفسه ص 233.

[16] - محمد الصغير بلعلام : السلك الديني في الجزائر خلال العشر سنوات ، واجبات و حقوق ، مجلة الأصالة عدد 08 ، جوان ، ماي 1972 ص 246

[17] - محمد الصغير بلعلام ، مقابلة سابقة .

[18] - يحي بوعزيز : أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر و العشرين ، مجلة الثقافة عدد 63 الجزائر 1981 ص 234

[19] - عثمان شبوب : دور التعليم الأصلي في ثقافتنا الحديثة ، مجلة الأصالة عدد 11 السنة الثانية ، نوفمبر ، ديسمبر 1972 ص ص 02 ، 03

[20] - إدارة التعليم الأصلي : المرجع السابق ص 429 .

★ برنامج مؤسسات التعليم الأصلي يرتكز أساسا على التربية الوطنية و التعمق في اللغة العربية و اللغات الأجنبية و بذلك فهو منهج دراسي متكامل مستمد من أحدث الطرق العلمية المعمول بها في الدول المتقدمة ، و البرنامج بهذه المواد يكون نفسه المعتمد في وزارة التعليم العام مع برنامج إضافي يتمثل في العلوم الشرعية من تفسير و حديث و فرائض و اصول و منطق و فلسفة اسلامية

[21] - ينظر : إدارة التعليم الأصلي ، المرجع نفسه ص 429 و كذلك:

Luc-Willy Deheluvels, Islame et pensée contemporaine en Algérie, Edition du CNRS, Paris 1994 p: 21

[22] - إدارة التعليم الأصلي: المرجع نفسه ص 431.

★*تزامنا مع توسع نطاق التعليم الأصلي صدرت بشأنه المراسيم التي تعترف شهاداته حيث استحدثت شهادة البكالوريا للتعليم الأصلي و شهادة الأهلية للتعليم الأصلي ينظر : الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية : مرسوم رقم 71- 128 المؤرخ في 13 ماي 1971

★ يؤكد مترجمنا أن الرئيس بومدين شخصيا كان وراء جعل شهادة البكالوريا للتعليم الأصلي ذات معادلة دولية ككل الشهادات ينظر: مولود قاسم بومدين وثوابت الامة المرجع السابق .

★★ 1971 السنة التي اجريت فيها أول دورة لامتحان شهادة البكالوريا و كان عدد الناجحين 33 طالبا

★★★ صممت هذه المؤسسات وفق نمط معماري واحد ذو طابع إسلامي انظر الملحق رقم:

[23] - M.MADI : langue et identité de la marginalisation a la résistance réflexion N°01 Edition casbah, 1997 p . 118

[24] - أحمد درار ، المرجع السابق ص 230 .

[25] - عثمان شبوب ، المرجع السابق ص 06 .

[26] - رابح تركي : مشكلة الأمية في الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981 ص 25 .

[27] - محمد الصغير بلعلام : ، المرجع السابق ص 250.

[28] - المرجع نفسه ص 250

[29] - محمد الصغير بلعلام : المرجع السابق ص: 253.

[30] - محمد الصغير بلعلام: المرجع نفسه ص 250

[31] - المركز الوطني لمحو الأمية : تاريخ الأمية و حجمها و خطرها ،مجلة الوحدة اللسان المركزي للإتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية : L'UNJA عدد 145 الجزائر 1983

★ بلغ عددهم في 1973 200 تلميذا يدرسون إلى جانب الطلبة الجزائريين و يتمتعون بالنظام الداخلي مع منحة شهرية و تتكفل الوزارة الوصية بتكاليف السفر و العلاج و شراء الكتب ينظر :
إدارة التعليم الأصلي ، المرجع السابق ص ص 428 ، 429

[32] - L.W – Deheluvels . op-.cit.p.23

[33] - محمد الصغير بلعلام ، مقابلة سابقة

★ يوجد هذا النوع من الجامعات في ألمانيا الغربية ، النرويج و الدنمارك و باقي الدول الاسكندنافية و يبدوا أن مترجمنا قد تأثر بالنجاح الكبير الذي حققه هذا النوع في ألمانيا الغربية في الخمسينات و الذي يسمى " VOLEKS-.Shochs-.Shule "

[34] - علال الفاسي : نهضة التعليم الأصلي في الجزائر ، مرجع سابق ص 90.

[35] - خصوصا و أن هذه الجامعات تستقبل الراغبين في التعليم من جميع المستويات و تفتح أبوابها من الساعة السادسة إلى التاسعة مساءا و تدرس نفس البرنامج المعمول به لدى التلاميذ النظاميين ينظر : مجلة الأصالة عدد 17 ، 18 مرجع سابق ص 430.

[36] - المرجع السابق ص 430

[37] - جوهري بوعلام المرجع السابق ص 316.

★ تم إنشاء ثلاث مدارس كمرحلة أولى 1971 – 1973 و هي مدرسة سيدي عقبة و مدرسة تيزي وزو ، و تلاغمة فضلا عن المدرسة الوطنية لتكوين الإطارات الدينية بمفتاح و خططت الوزارة لإنشاء مدارس أخرى لتكوين و تأهيل الأئمة و الخطباء و ذلك لاتساع مهامهم من الإمامة في الصلاة و الوعظ و الإرشاد و تحفيظ القرآن إلى إعطاء دروس في الفقه و التفسير و السيرة ينظر : محمد الصغير بلعلام : السلك الديني في الجزائر خلال العشر سنوات ، مرجع سابق ص 251 .

★★ ابتداء من موسم الحج لسنة 1974 تم اصدار اقتراحات تنظيمية تبعا للتقاليد المتبعة في الدول الاسلامية و ذلك بإرسال مرافقين مع الحجاج و توحيد الوفود في بعثة واحدة تمثل كل الجزائريين

★★★ المنح العائلية ، الضمان الاجتماعي ، الترقية ، العطل ، التقاعد ، الاستقرار في الوظيف

[38] - محمد الصغير بلعلام ، المرجع نفسه ص ص 248 ، 249

[39] - مولود قاسم نايت بلقاسم ، قرار 56 – 94 / 74 الصادر في 10 ماي 1974

[40] - محمد الحسن فضلاء : المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر ط1 دار الأمة 1999 ص 241 .

★ يبدو أن فكرة توحيد التعليم كانت رائجة قبل 1976 و هذا ما دفع بإدارة التعليم الأصلي إلى دحض تلك الفكرة و كتابة مقال تحت عنوان : المفهوم المعكوس عن التعليم الأصلي و قد جاء ردا على بعض الكتابات التي وردت في بعض الصحف الوطنية ينظر : إدارة التعليم الأصلي المفهوم المعكوس عن توحيد التعليم لدى بعض المخربشين ، الأصالة عدد 9-10 جويلية – أكتوبر 1972 ص 189

[41] - جوهري بوعلام المرجع نفسه ص 315.

[42] - وزارة التربية و التعليم الأساسي : مجلة التربية ، العدد 03، السنة الأولى ماي ، جوان 1982 ص 101

[43] - الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية مرسوم رقم 77 – 139 مؤرخ في 08 أكتوبر 1977 .

[44] - حزب جبهة التحرير : الميثاق الوطني 1976 ، المعهد التربوي الوطني الجزائر 1976 ص 97

[45] - علال الفاسي ، المرجع السابق ص 90

[46] - د / أبو القاسم سعد الله عن د / أحمد بن نعمان ، مولود قاسم نايت بلقاسم ، حياة و آثار شهادات و مواقف ، مرجع سابق ص 205

[47] -المرجع نفسه ص 206.

★ ترك إلغاء التعليم الأصلي أثرا بالغا في نفسية مترجمنا ففي رواية أفادنا بها الأستاذ محمد فارح قال فيها أنه زار مولود قاسم في مستشفى مصطفى باشا الجامعي قبل ثلاثة من وفاته و أنه سمع من مترجمنا قوله أنه تمنى أن يعود يوما للتعليم الأصلي و يفتح فيه كلية للطب مقابلة مع محمد فارح ،المجلس الإسلامي الأعلى الجزائر العاصمة 12 جانفي 2005 .

★★ عالم و فقيه جزائري و مؤرخ ولد سنة 1915 بدائرة الميلية خريج جامعة الزيتونة 1936 اشتغل بالتعليم شارك بقلمه في الثورة بالمقالات و البيانات و هو ما عرضه للسجن ، بعد الاستقلال تقلد مناصب هامة إضافة إلى مهمة التدريس كان عضوا في المجلس الإسلامي الذي تأسس في 1966 ، وفي سنة 1972 استدعاه مولود قاسم من جامعة الجزائر لرئاسة المجلس الذي اخرجه فعلا من حالة الجمود التي لازمته في فترته الأولى (1972-1966) و كان من أبرز الوجوه التي شاركت بفعالية في ملتقيات الفكر الإسلامي توفي سنة 1999 ، ينظر: معجم إعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين مرجع سابق ص 65

[48] - الشيخ أحمد حماني : استشارات شرعية و مباحث فقهية ج1 منشورات وزارة الشؤون الدينية الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية 1993 ص10

[49] - أحمد درار : التعليم الأصلي في الجزائر خلال العشر سنوات من استرجاع الاستقلال ـ مرجع سابق ص 234